السنة السادسة والاربعون — ايلول - تشرين الاول ١٩٥٣

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد الراشد المقتفي عمّه ابن المستظهر

تولّى اربعاً وعشرين سنة وشهرَين . بعدما خُلع الراشد استدعى السلطانُ الوزيرَ شرفَ الدين زيني وفوّض اليه امر انتخاب خلف له . فاختار عمّ المعزول لكونه صهره زوج ابنته. وسار السلطان مسعود الى البلاط في اقطابه وأحضروا المقتفي ووافقوا عليه بعد ما قرّر ان يدفع للسلطان مائة (٣٠٠) وعشرين الف دينار. ولم يكن يومئذٍ في خزانة الخليفة دينار واحد . انما كان للمقتفي قبل خلافته عشرة آلاف دينار انفقها في حفلة مبايعته بالخلافة: والتفت الخطبة للراشد وللسلطان داود وتأيّدت المقتفي وللسلطان مسعود . قيل ان

السلطان لمّا غادر البلاط استدعى اوزير زيني وعاتبه بسبب انتخابه للمقتفي وقال له : لقد اسأت بانتخابك رجلًا كاملًا كهلًا عاقلًا . فلو انتخبتَ فتًى وربّيته لنَظَرْتَ اليك نظرة امتنان وشكر وأصبح أمر الخلافة وسياستها بيدك زماناً مديدًا ريثما يبلغ الرشد . والآن فكن على ثقة من ان زمان وزارتك لن يطول مع هذا الذي اصطفيته وسترى حقيقة ذلك .

ولما دخلت السنة ٥٣١ للعرب (١١٣٦ م) ارسل ابن دنشمند صاحب ملطية سفيرًا الى السلطان في بغداد يتوسّل اليه ان يعيده الى منصبه . ولمّا مضوا بالسفير ليقبّل الاعتاب كالعادة تمنّع وأبى وقال : لستُ أقبّل اعتاب دارٍ طُرد منها صاحبها .

امّا زنكي فقد حشد جيشاً وسار الى تكريت وناوش قطيع السلطان مسعود وانقلب الى الموصل . فأرسل اليه المقتدي ووعده بعشرة اماكن معتبرة بشرط ان يكفّ عن معاضدة الراشد . فقال زنكي : لقد أقسمتُ بان لا اسلمه اليكم ولكن اذا اعطيتموني تلك الاماكن خطبتُ باسمكم وكففتُ عن مساعدته ولكنّي لن اسرّحه من عندي . فاعطاه الخليفة تلك الاماكن العشرة ومنها حربي وحاصيرة وصاريفين والحلّة وغيرها . وقد خطب زنكي للمقتفي وللسلطان مسعود وترك الراشد لديه في دار الذهب بالموصل .

وظهر في تلك الاثناء عجوز تخدم بيت تاجر بجانب باب الأزَج ببغداد . وسافر التاجر ليتاجر (٣٠١) وظلّت امرأته وابنته والعجوز المذكورة في البيت . ثم اتفقت العجوز مع ابنها وبعض السرّاق فأقبلوا ليلًا ودخلوا الدار ونهبوا كلّ ما فيها . ولمّا خرجوا قالت العجوز وامرأة التاجر : نشكر الله تعالى الذي أعمى عيونهم ولم يفتحوا الصندوقة . فسمع السرّاق وانقلبوا ففتحوها وأخذوا منها اربعة آلاف دينار وحجارًا كريمة ولآلئ وانصرفوا .

وتبارز مسعود وداود فانكسر مسعود وقُتل الكثير من رجاله .

وفي السنة ١٤٤٨ لليونان (١١٣٧ م) سار ايونيّ ملك اليونان الى قيليقية ساخطاً على لاون الارمني ودوّخ طرسوس وآطنة والمصيصة وقبض على لاون وعلى امرأته واولادهما ورحّلهم الى قسطنطينية. ثم توجه الى انطاكية فامتنعت

عليه . وأقبل اليه جوسلين وتمّ الاتفاق بان الفرنج يعطونه انطاكية متى احتلّ حلب وسوريّة وتخلّى لهم عنها . ثمّ زحفا معاً الى حلب واحتلّا بزاعة واقاما محاربين يحاصرون شيزر .

واقبل حين ذاك مسعود سلطان قونية الى قيليقية واحتل آطنة وأجلى اهاليها جميعاً مع اسقفهم واستاقهم الى ملطية. فسمع ايونيّ واحرق المنجنيقات وانقلب الى قيليقية وهادن مسعودًا وعاد الى عاصمته .

اماً محمود صاحب ملطية فقد طرد اخاه دولة وانتزع من يده ابلستين وجيحان . وسار دولة الى هنزيط فآمد وزار جوسلين وجعل يطوف البيوت بيتاً بيتاً .

وظهر يومئذٍ الامير عيسى صاحب سويك وكان يمتُّ بصلة الى بوغوص الارمنيّ الذي سار الى بغداد ودخل في دين الاسلام . فحشد الجند وانطلق الى جرجر ليغزوها فشاهدها خربةً . فوجّه انظاره الى الاديار والصوامع وانقضّ على دير مار (٣٠٢) انجاي المعروف بدير السلالم ولم يتيسّر له الوصول اليه من ناحية شاطئ الفرات فتسلّق الصخر وأحدَرَ اليه رجاله فانهزم الرهبان فاحتلّ الدير واحتوى على ما به من امتعة وكؤوس واطباق فضيّة وصلبان واقتلع قناة الماء التي وضعها البطريرك يوحنا بن عبدون(١٠٠٤ – ١٠٣٠) وبعث الربّان داود الناسك الى دير شيرا ولم ينجُ سوى دير ابي غالب المعروف بدير مائدة الملوك وهو باطراف آمد .

وفي السنة ٥٣٢ للعرب (١١٣٧ م) انطلق الراشد الخليفة المعزول من الموصل الى خراسان ليزور السلطان داود . فتحفّى له السلطان وسارا معاً الى همذان وانتزعاها من يد السلطان مسعود . ثم توجّه الراشد الى اصفهان فادركه داء عضال ووثب اليه وهو طريح الفراش اربعة خراسانيّين وفتكوا به . ولو لم يفتكوا به على ما قيل لعاجلته المنيّة بسبب دائه وقد سُقي سمًّا ثلاث مرّات. ودفنوه بباب اصفهان حيث صُرع . وقد قُتل والده كذلك عند باب مراغة .

ولمّا كان الاتراك يحاصرون الرها عام ١٤٤٩ للبونان (١١٣٨ م) حشد الفرنج ثلاثمائة فارس واربعة آلاف راجل وساروا من سميساط لينقلوا المؤونة

الى الرهاويين. فوثب اليهم كما. تيسورطاش صاحب ماردين وفتكوا بكثيرين من المسيحيين واستاقوا البقيّة عبيدًا وفي جملتهم الشمّاس ابو سعد الطبيب الفيلسوف وميخائيل ابن شومنا وابنُه . وانتزع تيسورطاش كذلك قلعة كسوس من الفرنج . ودخل مسعود سلطان قونية بلد الكيسوم وغزاه وأحرق القرى .

وفي الشهر الثاني من السنة ٥٣٣ للعرب (١١٣٨ م) حدثت زلزلة هائلة في غرنة ببلاد العجم واهلكت مائتين وثلاثين الف نسمة وقوّضت المدينة برمّتها وانبثق من أرضها مياه سوداء . وخرج الذين نجوا من الفائلة (٣٠٣) وأقاموا في المقابر يندبون اهاليهم .

وفي السنة ١٤٥٠ لليونان (١١٣٩ م) زحف الملك محمد صاحب ملطية الى قيليقية واحتلّ حصن هاجاي وحصن جينوفيرت وسار الى قاسينوس وهي على ساحل بحر بنطُس فغزاها وأجلى اهاليها جميعاً وباعهم عبيدًا .

وفي السنة التالية انفجّت ارض الرقّة وبلعت اربعين فارساً مع افراسهم ونجا احدهم كان قد ذهب يتغوّط . وظلّت اصوات البشر وزمجرة خيلهم تدوي مدّة مديدة .

وفي السنة ٥٣٤ للعرب (١١٤٠ م) صحّ ما قاله السلطان مسعود للوزير شرف الدين وهو انه لم يُصب في انتخاب الخليفة المقتفي اذ نشم هذا يتصرّف في شؤون السياسة دون استشارة الوزير وانزوى الوزير في بيته . فاستحضره الخليفة وانتوى في حقّه نيّة خبيثة وكفّ يده عن اعمال شتّى وما عتم ان عزله بالمرّة .

وفي تشرين الاوّل ٥٣٥ للعرب وهي السنة ١٤٥٢ لليونان (١١٤١م) سار اتراك ملطية الى اديار زابار وهي اديار قنايا ونهبوها . واقبل الفرنج في اثرهم ليثأروا ووصلوا الى زبطرة وعرقة ونهبوا اموال المسيحيين كما نهبها الاتراك . ثم زحف الفرنج الى أبلستين ونهبوا المسيحيّين وفتكوا بكثير من الاتراك واعتقلوا اولادهم ونساءهم فسخط الاتراك وزحفوا من هنزيط وصادفوا مطران قليسورا القدّيس في جبل ابدهور فقبضوا عليه واعتقلوه هو ومن معه وحاولوا ان يغتالوهم فباغتهم الفرنج وهزموهم وفكّوا المعتقلين وسرّحوهم .

وزحف ايونيّ ملك اليونان الى نوقيسارية وظل معسكره ومعسكر الاتراك ستّة اشهر لا يناوش احدهم الآخر ثم انفرطوا دون حرب . وكان الاتراك يومئذٍ يجيزون على كلّ نصرانيّ يلفظ اسم ملك (٣٠٤) اليونان او الفرنج كيفما كان وقد فتكوا بكثيرين من الملطيّين لهذا السبب .

وفي السنة ٥٣٦ للعرب (١١٤١ م) أرسل خوارزم شاه الى ملك الهونيّين الذين لم يُسلموا وكان العرب يسمّونهم «كافر تُرك» كي ينازل السلطان سنجر قاتل اخيه . فتأهب اولئك الهونيّون وهم ثلاثمائة الف وناوشوا مائة الف من اصحاب سنجر عند نهر جيحون واهلكوهم قاطبةً . ولم يُفلت سنجر من سيوف الهونيّين الّا في ستة فقط من رجاله فيما قيل وتوجّه الى بلخ . وقد أجلوا امرأته وابنة بنتهِ مع اربعة آلاف امرأة . وهكذا اتلفوا المائة الف قتلًا وسبياً .

وفي السنة ١٤٥٤ لليونان (١١٤٣ م) مات الملك محمود في قيسارية وأوصى بالمملكة لابنه دُوَألتون . لكن امرأته الخاتون استدعت اخاه يعقوب ارسلان واقترنت به وولّته سبسطية . فانهزم دوألتون الى سينادو وتولّى قيسارية. امّا الاخ الآخر اعني دولة فقد اتفق مع يونس صاحب حصن مسارا وسارا الى ملطية وحاصراها فامتنعت عليهما فغادراها الى عرقة . وارسلت اذ ذاك الخاتون الفي جنديّ الى ملطية ليحرسوها ويخرجوا مَن فيها من الاتراك ويرحّلوهم الى سبسطية . فثار ثائر الاتراك وحطموا بالفؤوس باب المدينة وهو باب بوزيديه على رغم الحاكم وهزموا الزاحفين وارسلوا فاحضروا دولة في اليوم عينه وولّوه المدينة . وعند ذاك زحف مسعود سلطان قونية الى سبسطية ودوّخها واخربها وانقلب الى ملطية وحاصرها في سابع عشر نيسان وصوّب اليها المناريس وضايقها . امّا دولة فجعل ينكل بالمسيحيين ويطالبهم بالاموال ليدفع الى المحاربين . وبعد ثلاثة اشهر (٣٠٥) احرق السلطان بغتة المجانيق وارتحل ليلة عيد الصليب ١٤ ايلول واستراح الاهالي .

وفي نيسان تلك السنة خرج ايونيّ ملك اليونان للقنص . فثار خنزير برّي واجهز عليه . واوصى بالمملكة لابنه منوئيل الفتى وكان ابنه الكبير غائباً .

وتولى الفتى المملكة في نيسان ١٤٥٥ لليونان (١١٤٤ م) ولمّا دخل العاصمة رحب به اخوه وادّى له التحية والاكرام وايده في منصبه .

وكان ملك اورشليم الفرنجي كذلك يقتنص وسقط عن الحصان فقضى . وخلفه بغدوين الثالث ابنه الصغير وتولّت امه سياسة المملكة بسبب حداثته .

وفي السنة المذكورة مات داود صاحب حصن زياد وخلفه قرا ارسلان ابنه الصغير . وكان ارسلان طغميش ابنه الكبير عند زنكي بالموصل . فاقبل زنكي ليبعد قرا ارسلان ويقيم مكانه اخاه . فاستنجد قرا ارسلان بالسلطان مسعود في قونية فانجده بعشرين الف فارس عاد بهم ليبارز خصمه فانقلب الى الموصل بلده . ثم اقبل مسعود المذكور الى ملطية وحاصرها ثلاثة اشهر ثم تركها وارتحل .

انتزاع الرها من يد الفرنج

في السنة ١٤٥٦ لليونان (١١٤٥م) كان جوسلين صاحب الرها في انطاكية . فكتب الحرّانيّون الى زنكي بان المدينة لا عسكر فيها . فاقبل زنكي في جيش جرّار الى الرها يوم الثلاثا ٢٨ تشرين الثاني وحلّوا في ضواحيها وخيموا عند باب الساعات قرب كنيسة المعترفين . واقاموا سبعة منجنيقات ضخمة وصغيرة . واقام رهبان الجبل على السور يحاربون . والنساء هناك يقدّمن لهم الحجار والماء والطعام . وحفر الاتراك تحت الارض حتى بلغوا السور (٣٠٦) وحفر الرهاويون كذلك وبرزوا لمقاتلتهم وفتكوا بمن صادفوه في الحفرة . وعادوا فابتنوا سوراً ثانياً تجاه الحفرة . امّا الاتراك فحفروا برجين . ولمّا تخاخلت سائر الابراج وكادت تسقط ارسل زنكي يقول للرهاويين : خذوا منّا رجلين وابعثوا لنا رجلين ليشاهدا الابراج قد تداعت وسلموا المدينة قبلما تؤخذون بالسيف .

غير ان (المطران) پيروس رئيس الفرنج في الرها سخر بزنكي واثقاً بان جوسلين وملك اورشليم يوافيان قريباً لمساعدة المحاربين : وعند ذلك اضرم الاتراك النيران باخشاب الابراج فسقطت وجعلوا يدخلون الترعة ووقف هناك

الرهاويون وبيبوس والاساقفة معهم ليصدُّوهم عن الدخول . وامتلأت تلك الترعة من جثث القتلى الاتراك والرهاويين . وتجمهر الرهاويون جميعاً عند الترعة ورأى الاتراك ان المحاربين قد غادروا السور فوضعوا السلالم وتسلقوا فارتخت عزائم الرهاويين وجعلوا ينهزمون الى القلعة . لعمري اي لم يمكنه ان يتكلم ام اي اصبع لا ترتعد اذا حاولت ان تخط ما جرى من الفوائل والاهوال في الساعة الثالثة من يوم السبت ثالث كانون الثاني ! فقد دخل الاتراك وسيوفهم مسلولة تشرب دما . الشيوخ والفتيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والنسّاك والراهبات والعذارى والرضعان والعرائس . يا لها رزيئة اليمة مرّة ! مدينة ابجر خليل السيد المسيح أمست موطناً للاقدام بسبب اثمنا ! يا للضيق والشدة ! كفر الابناء بآبائهم والآباء بابنائهم . نسيت الام عطفها على صغارها وسارع كل واحد الى قمة الجبل .

امّا الكهنة الشيوخ فكانوا حاملين صناديق ذخائر الشهداء وهم يقولون مع ميخا النبي : « اني احتمل غضب الربّ لاني خطئتُ اليه » (ميخا ٧ : ٩) فواظبوا على الابتهال ولم ينهزموا حتى اسكتهم (٣٠٧) السيف . وشوهدوا بعد ذلك وقد تضرجت بدلاتهم بدمائهم . وهناك امهات كثيرات جمعن اولادهن كما تجمع الدجاجة فراريجها ينتظرن الموت جميعاً بالسيف او السوق الى العبودية .

امّا الذين انهزموا الى القلعة فقد اغلق الحراس ابوابها تجاههم وهم يقولون : لن نفتحها لكم إلمّ نشاهد وجه بيبوس . ولكن بيبوس تعذر عليه القدوم مع الاولين وقد اهلك الازدحام كثيرين وتراكمت الجثث كوماً كوماً عند باب القلعة ولما وصل بيبوس اصيب بسهم ارداه .

ولمّا شاهد زنكي تلك الاهوال امر بالكف عن القتل . وشوهد المطران باسيليوس عرياناً حافياً يجرّه تركي بالحبل . وما ان رآه زنكي ولمح النعمة التي على وجهه حتى سأله من انت ؟ ولمّا عرف انه هو المطران أمر فالبسوه ثوباً ومضى به الى خيمته وجعل يعاتبه ويلومه لان الرهاويين لم يشفقوا على انفسهم ويسلموه المدينة . فقال له المطران : ان العناية الربّانية شاءت ان تمنحك الغلبة وتذيع اسمك بين الملوك رفاقك وتولينا نحن الاذلاء دالةً لديها لاننا ما غدرنا

ولا حنثنا بأيماننا . فاستحسن زنكي كلامه وقال له : قد صدقت في ما قلت ايها المطران . فان الله تعالى والبشر كذلك يكرمون من يحافظون على أيمانهم ولا سيما اذا ثبتوا بها حتى الممات .

وبعد يومين طلب الامان من كان في القلعة وسلّموها . وفتك الاتراك بكل من شاهدوا من الفرنج واغمضوا عن السريان وعن الارمن . على ان لساننا قاصر عن الاسترسال في ذكر تلك الداهية الدهياء . ولارميا النبي ونظرائه ان يفيضوا في المراثي ويستدعوا النائحات النادبات لينظمن مثلهم وينحن على الشعب المستحق العطف والشفقة .

وقد التهمت النيران يوم فتح الرها ديرالقراريط ببلد خرشنة واتلفت غرفه باسرها واجهزت على راهب شيخ وأفلت سائر الرهبان افلاتهم من كور النار. واحترقت في اليوم ذاته قرية ببلد مرعش . وسقطت نار في دير (٣٠٨) مار برصوما واتلفت ثلاث غرف ريثما تمكنوا من اطفائها. وقد نظم في فتح الرها هذا ديونيسيوس ابن الصليبي قصيدتين وباسيليوس مطرانها ثلاث قصائد وخمستها بوزن مار يعقوب .

وبعد ما احتل زنكي الرها سار الى البيرة وهي قلعة حريزة للفرنج تطلّ على الفرات وحاصرها حصاراً شديداً . ووافاه اذ ذاك الخبر بان فتنة وقعت في الموصل وقُتل نائبه ناصر الدين . فترك البيرة وانقلب الى بلده . اما الفرنج فخافوا ان يعود زنكي فكتبوا الى حسام الدين تيمورطاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وسلّموه اياها . وخاف ايلغازي ان يزحف زنكي الى بلاده ويحتلّ تلاعه وسائر ولايته فقوّض قلاعاً كثيرة منها قلعة حور عبار وقلعة تلبسا وقلعة توما وقلعة تل شيح وقلعة المرأة التي بجانب دير مار حنانيا. واقام تيمورطاش يحاصر قلعة الهتاخ سنة واربعة اشهر حتى انتزعها من صاحبها الكرديّ وعادنه ودفع له كمية من الذهب وتخلى له عن بعض القرى .

وخرج ارسلان طغيش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي وسار الى بلد تل ارسانيوس وسأل اصحابه ان يسلّموه اياه فأبوا لان اولادهم كانوا رهائن في حصن زياد . فحارب البلد واحتله واستعبد اهاليه وهم خمسة عشر

الفاً مع اسقفهم طيماثاوس وباعهم .

وفي السنة ٥٤٠ للعرب (١١٤٥م) وجه زنكي جنوداً الى قلعة فنك المجاورة لجزيرة قردو او هي جزيرة ابن عمر . وهي قلعة حريزة تطل على دجلة احتلها الاكراد البشنويون منذ ثلاثمائة سنة .

وفي السنة ٥٤١ للعرب (١١٤٦م) اصلح زنكي ذات البين في الموصل (٣٠٩) على اثر مقتل نائبه ناصر الدولة واقبل الى حلب وهي له وحشد الجنود وزحف الى قلعة جعبر . ولما كان يوماً في خيمته احضر اليه الصنّاع طبقاً ذهبياً لينظره فحنى رأسه وجعل يتأمله فامتشق احد حملة سلاحه سيفه وضربه من ورائه وحزّ هامته . وكان فيما قيل سكرانَ غارقاً في النوم ليلاً . وان ثلاثة من عبيده اسرعوا الى اسفل القلعة وقالوا للحراس : اسجونا اليكم لنبلغكم بشرى تبهجكم . فدلّوا زنبيلاً وسجبوهم واحداً فواحداً فأخبروهم بما صار وقالوا لهم : انفخوا بالابواق ونادوا من في اسفل القلعة وقولوا لهم انهضوا واذهبوا فاقبروا مولاكم قبل ان ينتن. فسارعوا اليه وشاهدوه مذبوحاً .

اما محمود بن زنكي الذي دُعي نور الدين وكان مع ابيه فقد شدّد القتال على القلعة حتى كلّ هو والمحاصرون . ثم قال لهم : سلّموني قَتَلة ابي وانتم كونوا في طمأنينة. فسلموه اولئك الثلاثة فاجهز عليهم واحرق جثثهم . وخلّف زنكي اربعة بنين وابنة واحدة وهم : سيف الدين غازي ونور الدين محمود وقطب الدين مودود ونصرة الدين امير اميران واختهم . وشاد في الموصل دوراً ملكية اذ لم يكن بها قبله الّا دار ملكية واحدة تجاه الميدان . وقد عمق اساسها ووطّد اسوارها . وفتح باباً يقال له باب عمادي غرس الحدائق حوله . وكانت الثمار ولاسيما العنب قليلة جداً في الموصل قبل زمانه حتى ان الحانوتي كان اذا باع عنقود عنب قطعه بالموسى لئلا تقع عنبة منه على الارض (٣١٠) . وقد ازدادت الثمار في الموصل بعد ذلك . وكان لزنكي اصحاب في بلاط السلطان يخبرونه سراً بما يجري هناك ليل نهار . وكان اذا وافاه سفير ما، نهاه عن محادثة الجنود والاهالي.

ودُفع يوماً لاحد عبيده طيخاً وقال له احفظه لديك . فاخذه ولفه بمنديل

ووضعه في عبّه وظلّ معه سنة كاملة وعند انتهائها سأله زنكي : اين الطبيخ ؟ فأخرجه فوراً من عبّه وقدمه له . فاعجبه ذلك العمل وقال : الى مثلك ينبغي ان افوّض حراسة البلد . ثم ولّاه قلعة كواشي وسيره اليها .

ولزنكي صفات اخرى تدلّ على زهده وعلى بطشه بالمجرمين ايًّا كانوا ضربنا الصفح عنها حبًّا للاختصار . وقد ملك سورية تسع عشرة سنة . وكان لديه حينما قُتل في قلعة جعبر امير كبير عاقل-اسمه اسد الدين شيركوه . هذا قال لنور الدين بن زنكي : يلوح لي ان وزير ابيك يحاول ان يستميل الجيوش الى اخيك سيف الدين ويأتي به الى الموصل . فالاجدر ان اذهب بك الى حلب لتتولّاها انت وتتولى سورية معها . وبعد هذا يسهل عليك احتلال الموصل واقليمها وبلاد المشرق .

ولمّا تمّ ذلك اجتمع نور الدين بجيوش سورية ومضى بهم الى حلب وتولّاها مع قلعتها . ثم ارتحل اخوه سيف الدين الى الموصل وتولّاها وأيّده السلطان مسعود اذ كان يُخلص له المودّة . وسبق نور الدين فأدّى له كذلك خدماً جلّى يوم كان والده حيًّا يُرزق . وارسل السلطان الى سيف الدين حلّة ملكيّة تأييداً له في منصبه . وكان نور الدين يخاف اخاه المذكور (٣١١) فبعث اليه بالهدايا معرباً له عن اخلاصه متحذرًا ملاقاته . وبعد ما حلف احدهما للاخر سار سيف الدين الى سورية وبادر نور الدين اليه فانحدر لما شاهده وقبّل الارض امامه . وانحدر سيف الدين كذلك وتعانقا وبكيا . وقال سيف الدين لاخيه : لماذا لم تأتِ اليّ هل خفت مني ؟ ثق يا اخي بانه لم يخطر ببالي ما خطر ببالك . وماذا تنفعني الحياة والبلاد اذا اسأتُ الى اخي ؟ هكذا اتفق الاخوان وعاد كل منهما الى بلده .

وعلى اثر مقتل زنكي سار ريموند صاحب انطاكية الى اطراف حلب وحماة وفتك بكتيبتين من العرب وغنم غنائم وافرة . وعند عودته ادركه شيركوه واستردّ منه الغنائم . وسار مجير الدين صاحب دمشق الى بعلبك وشدد عليها حتى انتزعها من نجم الدين ايوب والد صلاح الدين وترك له بعض القرى وعاد الى دمشق .

وفي تشرين الاول من السنة ١٤٥٨ لليونان (١١٤٧ م) شخص جوسلين وبغدوين صاحب الكيسوم الى الرها وتسلق رجالة الفرنج البرجين ليلاً بحيلة عتداها مع بعض الارمن حارسي السور . فانهزم الاتراك الى القلعة . وعند الصباح فتح باب الماء ودخله جوسلين . وما كاد يمر على ذلك ستة ايام حتى باغتهم نور الدين قادماً من حلب في عشرة الاف تركي . فشدّ جوسلين على الرهاويين المساكين واستاق الرجال والنساء والفتيان والفتيات قسرًا في الساعة الثانية من الليل . ولما اصبح الصباح اردكهم الاتراك ووضعوا فيهم السيام كالبرَد وهم يرشقونهم رشقاً آلياً . فيا لسحابة السخط والغضب ! تبًّا ليوم خال من الرحمة ! تبًّا لليلة جائحة وصباح جهنمي ! فقد انقضّ الاتراك على الرهاويين الاذلاء ابناء المدينة المغبوطة ! وتركهم الفرسان الفرنج وانهزموا اذ عجزوا عن المقاومة (٣١٢) اما رجّالتهم فتعذرت عليهم الهزيمة وقصدوا حصناً خراباً يُدعى حصن كوكب واستجاروا به . وظلّ الرهاويون المظاومون والسيف يسحقهم سحق النار للهشيم . ولم يكتفوا بالقتل بل اخذوا يتزعون احذية الباقين وثيابهم ويوثقونهم بالحبال ويستعجلونهم على الركض حفاة عراة رجالاً ونساء ويضطرونهم ان يتبعوا الخيل . وقد أوفى عدد القتلى في المرّتين الاولى والثانية على الثلاثين الفاً . واستعبد الاتراك ستة عشر الفاً ولم يُفلت مع الرّجالة الفرنج الذين انهزموا الى حصن كوكب سوى الف رجل فقط . وقد باع الاتراك كل من استاقوهم في مختلف البلدان وأمست الرها خاوية خالية مخضّبة بدماء اولادها ممتلئة من عظامهم تهجم عليهم وحوش القفر ليلاً وتتغذى بلحومهم . وامست مأوى لبنات آوى .

وقد قُتِلت جثّة بغدوين صاحب الكيسوم وأفلت جوسلين اللعين الى سميساط . وانهزم باسيليوس مطراننا وقُبض على مطران الارمن مع كثيرين من جماعته . ولما سمع سائر الفرنج بما جرى من الفوائل في الرها تدفقوا من ايطالية واقبل ملك الالمان[1] في تسعين الف فارس وملك فرنسا[2] الذي يدعوه

١) كونراد ملك النمسة

٢) لويس السابع (١١٣٧-١١٨٠)

العرب فوتش فى خمسين الفاً سوى الرجالة الذين بلغوا حد الكثرة . وتوجهوا في السنة ١١٤٩ لليونان (١١٤٨ م) الى قسطنطينية وحاربوها حرباً شديدة اذ اظلموا على خيانة اليونان وغدرهم. وبعد ما دفع لهم الملك منوئيل ذهباً وافراً وأقسم ان يهديهم الطرق بامانة غدر بهم وارسل مَن دلّهم على طريق وعرة وجبال قاحلة لا ماء فيها. وظلّوا ثلثين خمسة ايام وانهزم اليونان هداتُهم فقضى ربواتٌ منهم عطشاً هم وخيلهم . وسمع الاتراك فانقضوا على المشتتين (٣١٣) في الجبال وجعلوا يفتكون بهم فئةً فئةً حتى امتلأت بلادهم من الغنائم وبيعت وزنات الفضة في ملطية بيع الرصاص .

اما الفرنج الذين افلتوا وعادوا الى سواحل بحر بنطس فقد اخذ اليونان الجبناء يخلطون كلساً في القمح ويطعمونهم . فكانوا اذا اكلوا سقطوا كوماً كوماً وقضوا . وقد نجا ملك الالمان في ثلاثة من القلعصة لا غير وسار الى اورشليم وصلّى وتبرّك بقبر المخلّص واقام بضعة ايام ثم زحف الى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين الف راجل . وكان عدد الاتراك والعرب نحو مائة وثلاثين الف راجل سوى الفرسان . ولما عرف الفرنج انهم على كثرتهم لا قوّة لهم اخذتهم النخوة والشجاعة فحملوا عليهم حتى وصلوا الى الانهار ودخلوا الجنائن .

أيس المُعين صاحب دمشق فارسل سرًا الى ملك اورشليم وخدعه بالكلام والذهب وقدّم له مائتي الف دينار من نحاس ملطوخة بذهب مصري. وارسل كذلك الى صاحب طبرية خمسين الفاً من الذهب المزيّف وقد اطّلع الفرنج على ذلك وادركوا الخيانة . على اني طالعت خمسة كتب عربية مختلفة لم اعثر فيها على حكاية هذا التزييف . غير ان البطريرك ميخائيل المنبوط ذكرها في تاريخه . ولما اطّلع ملك الفرنج على الغش والخداع تركَ دمشق وعاد الى وطنه يتفطّر قلبه غمًّا واسفاً . تلك كانت عاقبة اولئك الجنود الفرنج الكثيري العَدَد والعُدَد .

له صلة